عن اطروحة المفكر الايراني عبد الكريم سروش

٣-١

مهدي النجار

عبد الكريم سروش

أضافت مجلة "قضايا إسلامية معاصرة" بابا جديدا إلى أبوابها السابقة يستوعب افكارا للحوار والمناقشة وكانت من اهم الدراسات التي تصدرت باب المناقشة دراسة "بسط التجربة النبوية "للدكتور عبد الكريم سروش (مفكرواستاذ دين ايراني، ولد في طهران ودرس الفلسفة في بريطانيا) احتوى العدد إضافة لهذه الدراسة ثلاث مواد تتعلق بأفكار سروش وتتمحور حول رؤيته للتجربة النبوية،

في واحدة من هذه المواد نشرت تحت عنوان "صورة لمن لاصورة له " بين عبد الكريم سروش وجون هيك (من أشهر دعاة التعددية المعاصرين وهو بريطاني يقطن برمنغهام) وفي حوارين مع سروش حول البسط في التجربة النبوية حاوره في الاول سرمد الطائي وفي الثاني بهاء الدين خرمشاهي. اعقبت ذلك اطلالة نقدية على نظرية بسط التجربة النبوية قام بها الباحث الايراني ارش نواقي،ونعتقد ان دراسة "بسط التجربة النبوية " من الدراسات المهمة التي تأخذ حيزا نوعيا في اهمية تصوراتها من بين الكثير من الدراسات الدينية التي اخترقت اسيجة التدين التقليدي المغلقة وتجاوزت على بعض الخطوط الحمراء لدائرة منظومة الخطابات التي انطلقت منها،اي منظومة الخطابات الدينية وراحت تصعد من حركتها النقدية باتجاه تدين اكثر معاصرة يتجاوز السائد من الافكار والتقاليد التي ينتجها العقل الديني التقليدي،وبطبيعة الحال لانعني بالتدين هنا الدين نفسه بوصفه مجموعة النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا،انما الذي نعنيه الاجتهادات البشرية لفهم تلك النصوص وتأويلها واستخراج دلالتها..ومن المسلم به ان تختلف الاجتهادات من عصر الى عصر، بل ومن الطبيعي ان تختلف ايضا من بيئة – واقع اجتماعي تاريخي جغرافي عرقي محدد- الى بيئة في اطار بعينه،وان تتعدد الاجتهادات بنفس القدر من مفكر الى مفكر داخل البيئة الواحدة،لان النص الديني (القرآن بالذات) اذ هو ثابت كما سلفت الاشارة فهذا لايعني الا من حيث منطوقه لكنه من حيث يتعرض له العقل الانساني ويصبح "مفهوما " يفقد صفة الثبات،انه يتحرك وتتعدد شروحاته وتفسيراته،اي يصبح "حمال اوجه " كما يقول الامام علي، بمعنى آخر أن النص القرآني هو كلام الله وهو عبارة عن اصوات لغوية عربية تلقاها الرسول الكريم بالوحي منطوقة غير مكتوبة، ولقنها لأصحابه مشافهة، ومن هذه اللحظة،اي لحظة نزوله الاول تحول كونه (نصا الهيا) وصار فهما (نصا انسانيا). لانه تحول من التنزيل الى التاويل،وقد اجمعت معظم الخطابات الدينية المعاصرة على خلاصة مفادها ان التدين بصيغته التقليدية التي تعيشها المجتمعات الاسلامية انما اصبح عائقا كبيرا من عوائق تقدم هذه المجتمعات ومانعا قويا في حركة اندراجها بمسارات الحداثة الثقافية والمادية، ورغم ان ما نقصده بالخطابات او(الدراسات والبحوث) الدينية النقدية المعاصرة تشكل نسبة ضئيلة،او قل حجما وتاثيرا متواضعا،اذا ما قورنت مع الكم الهائل والسماكة الغليظة لثقافة حوالي بليون من البشر (اي حوالي خمس سكان العالم) ثقافة اسلامية تقليدية اغلبها لايصل خطابها او نوع تدينها الى الحد الادنى من التعقل بل على العكس نجد هذه الثقافة الدينية اجترارية ونفعية وزاخرة بهوس التصارعات والتشاجرات المذهبية وطامسة حتى راسها في التلفيقات والتوفيقيات والمكر الخطابي،وجل ماتفعله هذه الثقافة حين تفرض في المدارس ان تتحاشى اي مراجعة نقدية او تأطير علمي لذا سرعان ما تتحول الى نوع من الخطاب الظلامي،ونستطيع ان نقيس مدى ضآلة الحظوظ التي تركت للعقل في هذه الثقافة من خلال هيمنة الاساطير والخرافات والاعيب القوى الخارقة للطبيعة وشعائر التقديس وشعوذة الوعاظين على عموم ممارساتها وخطاباتها.

حين وصفنا آنفا " بسط التجربة النبوية " بانها تجاوز على بعض الخطوط الحمراء لمنظومة الخطابات الدينية التي انطلقت منها هو مالفت نظرنا بصراحتها في عدم رضاها باي قديم،حتى الاديان،وحتى الهداية بل حتى الإله القديم فهذه كلها مقولات يجب ان تخضع لأعادة النظر والفحص ويتوجب ان تفهم بنحو شفاف. هذا ماطالب به الدكتور عبد الكريم سروش في مقدمة دراسته،وعلى اي حال فهذا من حقه. فلايمكن ان نفرض على الباحث مطالبات اخرى

فقط يمكن ان نطالبه بالادلة والبراهين على مايقول،وهذا ما سنكرره لاحقا بعد الانتهاء من العرض الموجز لاهم تصورات الدراسة التي جعلت النبوة (وهي من اهم المقولات الدينية والايمانية) مادة مفهومية أخضعتها للفحص وإعادة النظر في ثلاثة امور

الامر الاول : حينما ننظر لنبي الاسلام نظرة ارضية بشرية من بعيد، نلفيه رجلا مدبرا مصلحا مسددا وناجحا نجاحا باهرا. وان مقوم النبوة ورصيدها الوحيد هو الوحي او " التجربة الدينية " كما يسمى اليوم وهي من ابرز مميزات النبوة.يرى الرسول كأن شخصا ياتيه فيلقنه رسالة وأوامر،يمليها على اذنه وقلبه، ويكلفه بإبلاغها للبشر ويتيقن النبي من صحة هذه الرسالة والاوامر، ويطمئن اليها ويتشجع عليها الى درجة تجعله مستعدا لأداء واجبه الملقى على عاتقه حتى لو بقى لوحده في هذا الطريق وعلى الرغم من كل الممرات والضيق والأيذاء والعداوات التي يقابل بها، ان الفارق بين الانبياء وباقي اصحاب التجارب هو انهم لايمكثون داخل نطاق التجربة الشخصية، ولا يكتفون بها ولاينفقون اعمارهم في الخلسات والخلجات الوجدانية وانما يستشعرون مهمة جديدة يتحول احدهم بموجبها انسانا جديدا ينشئ عالما جديدا وبشرا جددا

الامر الثاني : كما يستطيع اي مجرب ان يكون اكثر تجربة يستطيع النبي ان يغدو تدريجيا اكثر نبوة، والشاعر بوسعه ان يصبح اشعر، والفنان احسن فنا.. الخ كان الرسول يزداد علما باستمرار،ويقوى يقينا، ويشتد ثباتا ويتضاعف ألقا ويزداد تجربة وبكلمة واحدة كان النبي يزداد نبوة.

البسط الذي يطرأ على شخصيته يفضي الى بسط تجربته، وبالعكس لذا فالوحي تابعا له وليس هو تابعا للوحي، مهما يكن فان بسط التجربة الداخلية للنبي يصاحبه بسط خارجي موضوعي،فمن ناحية يغدو النبي اكثر نبوة ومن ناحية اخرى تتسع رسالته وتنمو.

الامر الثالث : لم يكتفِ النبي بالخلوة ولم يعتزل جانبا،وانما عاش بين الناس وفرض على نفسه مواجهة قضايا عصره فجرب الكثير من العداوات والصداقات،وهذا ماأغنى تجربته الخاصة وزادها رونقا ونضجا بمعنى انه اثرى رسالته ودينه وبسطهما.

بكلمة ثانية لامراء ان تعامل الرسول مع العالم الخارجي كان ذا تاثير في بسط رسالته او في بسط تجربته النبوية.وقد تكون القرآن ونزل على الرسول بشكل تدريجي متتابع، وبتكامله تكامل الدين وتألقت شخصية الرسول ونضجت.ان النبي بشر وتجربته بشرية والمحيطون به بشر مثله ،وبتلاقح هذه العناصر الانسانية يولد تدريجيا دين انساني مناسب للبشر يلبي حاجاتهم الحقيقية ويتفاعل مع واقعهم الموضوعي.

وملخص القول ان نبي الاسلام (ص)كانت له تجربته على مستويين والاسلام حصيلة هذين المستويين من التجربة : التجربة الخارجية، والتجربة الداخلية وقد ازداد الرسول إيغالا في كلا النمطين مع مرور الوقت، فنما دينه وأزدهر وتكامل. إن ملاحظاتنا الأساسية حول "بسط التجربة النبوية "تنحصر في الآتي:

أولا: العلم المعاصر والتجربة النبوية

حيث البشر يمكنهم بلوغ بعض المعارف المتعالية على العقل المتسامية على التجربة، واستنادا إلى أبي حامد الغزالي في كتابه " المنقذ من الضلال " يستشهد بسؤال : هل اكتشف الإنسان خواص الأدوية التركيبية وقوانين الفلك بالتجربة ؟ لاريب أن إلهاما أو حدسا نبويا قويا تدخل في هذه المسائل. اهكذا نضع الأشياء على محك النقد والدراسة والتمحيص هذا شيء مؤسف، كيف لاتكون خواص الأدوية التركيبية وقوانين الفلك تحت التجريب والاختبار، وما علاقة خواص الأدوية التركيبية وقوانين الفلك بالتجربة النبوية ؟ ينبغي أن نفرز بصورة حاسمة العلوم المعاصرة عن علوم الأولين. العلم المعاصر عبارة عن ممارسة نظرية ومختبرية ومجاله التجربة والاستدلال في حين وحسب الغزالي نفسه في كتابه " مقاصد الفلاسفة " يعتبر إن "لاطريق لتحصيل العلم إلا بالمنطق فان فائدة المنطق اقتناص العلم وفائدة العلم حيازة السعادة الأبدية " وفي عصر علوم الفيزياء الحديثة التي تهدف إلى إيجاد العلاقة بين الخصائص الفيزياوية التي تميز كل ظاهرة وذلك باعتمادها على أهم قانونين شاملين وعامين هما قانون بقاء الطاقة وقانون بقاء الدفع (كمية الحركة) يعرف الغزالي الإبداع في كتابه " معيار العلم " بأنه تأسيس الشيء، لاعن مادة و لا بواسطة شيء"، ذاك أمر لايدعو إلى الاستغراب إذا عرفنا إن جميع العلوم الإسلامية آنذاك هي علوم أساسها النقل وهذا مايجعلها علوم معقول من منقول، على حد تعبير الفلاسفة أي أنها علوم بيان يضمها جميعا حقل معرفي واحد هو الحقل البياني العربي الذي يشكل نظاما معرفيا قائم بذاته له آلياته الخاصة به والتي انطبع بها منهج تلك العلوم فكان منهجا واحدا بمعنى آخر أن مايميز العلوم الإسلامية آنذاك هو أنها كانت علوما تدور حول النص الديني ساعية إلى استثماره في مجالات الشريعة والعقيدة واللغة لذا كانت اغلب العلوم مثل التفسير والفقه والكلام أساسها البيان من حيث انه فهم للخطاب القرآني فهما مطابقا يسمح باستنباط الأحكام الشرعية والعقدية والفقهية منه وإخراج لمعانيه الخفية وهذا ما يؤيده تعريف الجاحظ للبيان حيث يقول : " والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان.. والبيان اسم جامع لكل شيء كشف له قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويحجم على محصوله كائنا ماكان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدليل لان مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع "

(الجاحظ / البيان والتبيين) وفي نفس السياق يحدد الجاحظ البيان تحديدات مختلفة لكنها تلتقي جميعا في القول في اعتبار البيان "بصرا " بالشيء ومن" نتاج العلم "و " ترجمان العلم " و"عماد العلم " إن مدار العلوم الدينية الإسلامية بياني أساسه فهم النص الديني وإبراز ما في القرآن من وجوه الأحكام والاعتقادات والأعجاز والجمال والكشف والإبانة عن كل ذلك. بعد هذه الإحاطة الموجزة بأساس تلك العلوم نسال هل يعني إن تفاسير الطبري والرازي أو قانون ابن سينا في الطب أو مقولات الغزالي في العلم والفلسفة، هل يعني إن هذه الأنماط من التفكير المنتمية إلى فضاءات القرون الوسطى هي أشياء صالحة لبداية القرن الحادي والعشرين ؟ وهل نحن أبناء هذا العصر ملزمون بها ؟ بالطبع لا هذا وهم وسراب، لاريب في أن الغزالي مهم، وكذلك بقية المفكرين الإسلاميين ولكن لاينبغي المبالغة في أهميتهم وتحويلهم إلى أساطير

صدر عن (المدى)

مدخل الى حضارات الشرق القديم

ناجح المعموري

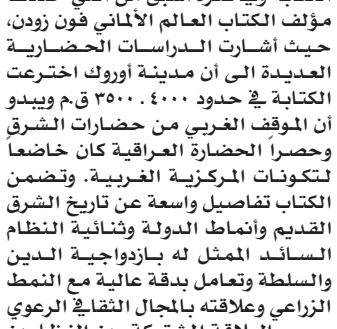

يمثل هذا الكتاب مصدراً مهماً في التعريف بحضارات الشرق القديم الذي يعني الإطار المكاني الذي ابتدأت فيه الحضارات المبكرة وتحولت الى مسرح لها وحدد المؤلف اللحظة السومرية باعتبارها البداية وحصراً في ٣٠٠٠ ق. م وتناول الحضارات الحورية وحضارات غرب إيران وقدم كشفاً دقيقاً بعناصر الحضارة. أول تلك العناصر النظم الكتابية لدى السومريين والصورية الحثية والكتابة في سوريا وفلسطين في الألف الثاني ق. م بالإضافة الى الكتابة الأبجدية الفينيقية والأبجديات كالأوغاريتية والفارسية. وتعتبر الكتابة الوجه الحقيقي الكاشف عن الحضارة وبدايات تشكلها وتكونها وقد أكد هيغل على هذا العنصر وتعامل معه خاصية أساسية مميزة لأي شعب من الشعوب، لكننا نجده في كتابه فلسفة التاريخ. الجزء الثاني. مؤكداً على ذلك، لكنه تجاهل تماماً الدور العراقي في اختراع الكتابة وفي فترة أسبق من التي حددها مؤلف الكتاب العالم الألماني فون زودن، حيث أشارت الدراسات الحضارية العديدة الى أن مدينة أوروك اخترعت الكتابة في حدود ٤٠٠٠ . ٣٥٠٠ ق.م ويبدو أن الموقف الغربي من حضارات الشرق وحصراً الحضارة العراقية كان خاضعاً لتكونات المركزية الغربية. وتضمن الكتاب تفاصيل واسعة عن تاريخ الشرق القديم وأنماط الدولة وثنائية النظام السائد الممثل له بازدواجية الدين والسلطة وتعامل بدقة عالية مع النمط الزراعي وعلاقته بالمجال الثقافي الرعوي بسبب العلاقة المشتركة بين النظامين الثقافيين والدينيين وكشف عن بواكير الوعي الإنساني خلال الاهتمام بالزراعة واقتراح تقويم خاص بالعملية الزراعية التي تطلبت تأسيسات جديدة للاهتمام بتربية الحيوان التي تعتبر مقياساً مركزياً في معرفة المستوى الذي وصلت اليه حضارة ما، وخصوصاً محاولات تدجين الحيوانات المتوحشة. وأكد فون زودن على ابتكارات الإنسان المتعلقة بإيجاد شروط موضوعية للزراعة وتطورها وتوفير العوامل المساندة والمساعدة على ذلك وتعامل مع زراعة البساتين، النخيل والفواكه باعتبارها نمطاً زراعياً متقدماً. ولابد من الإشارة الى ابتكارات البنية الذهنية السومرية في مجال الزراعة وصلة الإله أنكي والأم ننرخرساك في اقتراح هذا المجال وتعليم الإنسان بتفاصيله وهناك الكثير من الأساطير السومرية الدالة على ذلك وقد تضمنها كتاب الأساطير الذي ترجمه الأستاذ قاسم الشواف واعتقد بأن أسطورة الفلاح شوكاليتودا واحدة من أهم الأساطير الخاصة بالزراعة وخصوصاً زراعة البساتين والآلية التي أفضى بها الإله أنكي للفلاح شوكالتيودا كي يكتسب معرفة في زراعة النخيل التي واجهت كثيراً من الصعوبات والمعوقات الطبيعية لذا اقترح الإله أنكي على فلاحه غرس أشجار الصفصاف سياجاً حامياً ومصداً للرياح. وقال فون زودن: تعد شجرة النخيل من أبرز أشجار البساتين التي تمتعت بأهمية اقتصادية كبيرة طويلة الأمد في بلاد بابل والأجزاء الأخرى من بلاد الرافدين وهي الشجرة التي حظيت بدراسات خاصة ص١١٤ وحفظت المبتكرات الفنية تسجيلاً فنياً لاهتمامات العراقي القديم بالنخيل وحصراً تلقيح النخيل وكشفت الرقم الطينية المبكرة عن علاقة بين الإنسان والنخلة وأشار العلامة احمد سوسة الى أن النخلة هي الشجرة المحرمة وكشف أحد الرقميات عن لقاء مشترك بين آدم وحواء وتتوسطهما نخلة مثمرة. وتضمن الكتاب أيضاً عدداً من الفصول مكرسة عن العلوم السومرية والبابلية والمعتقدات الدينية والسحر وآخر الفصول وأكثرها أهمية عبر تفاصيله الخاصة بالأدب العراقي وأجناسه المختلفة وعلى الرغم من أن التفاصيل التي تضمنها هذا الفصل لم تكن جديدة لكنها انطوت على فضاءات فيها ما يلفت الانتباه في التأثيرات التي تضمنتها الإشارات الخاصة بالأسطورة والشعر ونصوص الخلق والتكوين والصراعات التي عرفتها الآلهة كذلك أساطير الأبطال والبحث عن الحياة والخلود بالإضافة الى أدب الحكمة الذي تميزت به الحضارة العراقية في لحظتها السومرية لكنه تكرس أكثر وتحول الى جنس تداولي في الحضارة الآشورية وكانت له امتدادات واسعة على الدول المجاورة مثل سورية وفلسطين ومصر، مع العلم بأن مصر كانت حضارة معنية بالحكمة وتكشف المصادر التاريخية الخاصة بالحضارة الفرعونية عن أدب الحكمة المصري وبخاصيته الوطنية لكن أدب الحكمة حاز مكوناته المبكرة في الحضارة الأكدية وصار جنساً متميزاً محافظاً على وظائفيته المجتمعية / السياسية / الدينية، وحتماً خضع أدب الحكمة للخصائص المميزة لكل حضارة من حضارات الشرق.

وقال فون. زودن عن الأساطير والملاحم الخاصة بالآلهة والتي كانت تروي قصصاً ذات طابع ديني " واستطاع الإنسان أن يستوحي منها إجابات عن تساؤلات مهمة مطروحة في حاضره آنذاك، هي في الغالب أقدم بكثير من الأساطير المدونة. ولكن لا يمكن لنا أن نستخلص من القصائد الأسطورية. إلا نادراً. سوى إشارات غير واضحة الى الأساطير ما قبل الأدبية. ووردت الأساطير الموغلة في القدم أحياناً بإيجاز ضمن إطار نصوص أخرى ويتكون القسم الأكبر من القصائد الأسطورية من أساطير انعكاسية أعادت بتأثير أفكار معينة أساسية صياغة الموروث القديم، وحورته في الغالب بشكل كبير وأغنته بقصص جديدة. ص٢٢٨

وأشار الباحث الى أن السومريين لم يكرسوا نصا محدداً وخاصاً بالخلق والتكوين مثلما هو حاصل في ملحمة الخليقة البابلية بل توزع ذلك على عدد من الأساطير والمناظرات والحواريات.

ويعتقد فون. زودن بأن أسطورة الطوفان السومري ظهرت في العصر البابلي القديم وربما تأثرت بقصيدة بابلية " وحكاية الطوفان الواردة في أسطورة اترخاسيس " تتطابق من حيث مجريات الأحداث. وأحياناً في المفردات المستخدمة فيها أيضاً. مع الحكاية التي كانت معروفة منذ زمن طويل والتي ضمت بعد نحو ٥٠٠ سنة الى ملحمة جلجامش ونجد فيها. وفق الحكايتين كلتيهما. أن الإله انكي / أبى أن يبوح بخطة الآلهة لأحد أكواخ القصب التي يجلس فيها اترخاسيس ويدعي اوتو نبشتم في ملحمة جلجامش ثم يكلفه ببناء فلك مكعب الشكل لأسرته ولمثلين عن كل أنواع الحيوان، ولكنه يحذره من أن يعلم مرافقيه من البشر بسبب عمله هذا، ثم يحدث الطوفان. ص٢٣١

وأشار أيضاً الى أن ملحمة الخليقة البابلية ظهرت في القرن الرابع عشر ق.م وهي معنية بكشف الأسباب التي جعلت من الإله مردوخ إلهاً قومياً وسيداً للآلهة، ومعروف بأن الإله مردوخ واحد من الآلهة الزراعية النازحة مع الأموريين الى بابل وتحولت خصائصه من الوظائفية الزراعية الى النظام الثقافي/ الديني الشمسي وهذا ما وفر فرصة لهذا الإله الشاب للمشاركة بالصراع المعروف مع الأم الهيولية تعامت وتغيرت خارطة الآلهة في ملحمة الخليقة البابلية وصار مردوخ أبنا للإله إيا إله العقل والحكمة والسحر ولا يمكن أن يكون لغيره، لأن وظيفته التي كانت لا يمكن أن تتحقق وينجز الفوز على الآلهة تعامت إلا إذا كانت وظائفه الجديدة مدعومة كلياً بالحكمة والعقل والاستعانة بالطاقة الخلاقة الكامنة في السحر وهذه العناصر هي من مكونات الشخصية الإلهية الخاصة بإيا. وتضيء هذه الملحمة لنا جوانب عديدة ومهمة من التكونات الجديدة للبنية الذهنية الأكدية ومنها على سبيل المثال تعطيلات الوظائف الخاصة بالآلهة الكبار مثل آنو وأنليل و شمش بالإضافة الى أكثر من وظيفة خاصة بـ ٥٠ إلهاً جديداً وحصل هذا التعطيل بسبب الصعود الثقافي والديني للإله الجديد مردوخ وتنازل كل من الآلهة عن عناصرهم له، لأنه الوحيد الذي أبدى استعداداً لدخول الصراع المعبر عن تطورات ثقافية / ودينية استدعتها المرحلة الحضارية، لذا تميزت شخصية الإله مردوخ بتنوعها وغزارتها ووفرت له إمكانات كبيرة لدخول معركة الصراع مع الآلهة تيامت وفعلاً استطاع تحقيق الفوز عليها واقتراح خلق جديد وتكوين مغاير لما كان سائداً.

وأعتقد بأن ملحمة الخليقة البابلية تنطوي في طبقاتها الداخلية والعميقة أيضاً على إشارات تطورية مهمة وأساسية في الديانة العراقية القديمة وهي مرحلة صعود إله واحد . مردوخ . ليختصر كثيراً من الآلهة ولكن لا يلغيها تماماً وتحول مردوخ الى إله قومي قاد الديانة العراقية الى عتبة التفريد وأعتقد بأن الحضارة العراقية أسبق من الحضارة المصرية في الوصول الى التفريدية من خلال الأتونية التي وضعت حداً نهائياً للديانة الأمونية وقضت كلياً على تنوعات الآلهة الغفيرة جدا وحازت على التفريد أيضاً. ولا بد لنا من الاحتكام للتاريخ في هذا المجال ونشير الى أن التفريد العراقي إبتدء في القرن الرابع عشر ق. م، بينما كان التفريد الفرعوني في ١٣٧٥ ق. م على يد الملك إمنحوتب الرابع الذي حاول تحطيم آلهة مصر القدماء وحاول إغراء الناس بعبادة إله واحد فقط هو إله الشمس، فكان هذا العمل من جانبه حادثاً جديداً لا مثيل له في التاريخ البشري، وأصدر أمره الى جميع شعوب الإمبراطورية بما فيها آسيا وأفريقيا ليعبدوا إلهاً واحداً أسماه "آتون" وأغلق العديد من المعابد وطرد الكهنة ليحمل الناس على نسيان دينهم القديم وأمر بمحو أسماء هؤلاء الآلهة أينما وجدوا وبخاصة في نقوش جدران المعابد، وكره الشرك فأمر أيضاً بتكسير علامة الجمع أينما وردت... وكانت كراهيته شديدة للإله آمون: (انتصار الحضارة: بريستيد ١٣٧) ويلاحظ بأن تاريخية التفريد العراقي أسبق من الأتونية المصرية على الرغم من أن الفارق الزمني بسيط جدا، إن التحولات الخطيرة التي تحصل دائماً في مجالات الثقافة والفن واللغة والدين في الحضارات القديمة وخصوصاً حضارات غرب آسيا لا يمكن تأشيرها اعتمادا على المدونات التاريخية فقط وذلك لأن المدونة عبارة عن إعلان للحظة التاريخية التي حصل فيها التغيير والحقيقة فأن العوامل الذاتية التي استدعت حصول مثل تلك التغيرات. التفريد . لم تكن ابن لحظتها التدوينية وإنما هي أسبق بكثير، لأن التحضيرات تبدأ في الثقافة والفن واللغة ويتم الاستعداد لذلك تدريجياً وعندما تكتمل المساعدات الموضوعية يعلن عن التحول وأعتقد بأنه أخطر التحولات الحاصلة في تاريخ الحضارات الشرقية، وقد واجه التفريد المصري . آتون . مقاومة اخناتون واغتياله، حيث تعطل التفريد المصري وأعتقد بأن خروج موسى قائداً للمتمردين المصريين معطى لانهيار الأتونية . والاختلافات واسعة جداً بين التكونات الإختلافية في الديانتين المصرية والعراقية وهي وجود نص ملحمي ملحمة الخليقة البابلية يؤرخ للحظة انتهاء عبادة الأم الهيولية تعامت وصعود إله شاب ودخول الذكورية كنسق ثقافي لأول مرة في الحضارة العراقية وكان دخولاً قوياً للغاية كما أن الحراك نحو التفريد في العراق القديم وجد مساحته الواسعة للغاية معبراً عن ذلك باصطفافات الآلهة الكبار مع الإله الشاب مردوخ ومبايعته ومنحه عناصرهم المهمة المساعدة له وهذا لم يحصل تماماً في الديانة المصرية التي لم تستطع الإبقاء على تفريدها. بينما ظل التفريد البابلي الذي حقق نتائج مهمة في جغرافية الإمبراطورية البابلية، ولم تواجه تجربة التحول في بابل ردود أفعال عنيفة، بل اكتفت بالصراع الحاصل بين مردوخ وتعامت وكأن مقتل الأم الأولى قد اختصر تماماً مشاهد الدم التي عاشتها الأتونية بعد الانهيار.

والملفت للانتباه في دراسة فون. زودن الخاصة بالأدب إشارته الى أن ملحمة جلجامش مكونة أساساً على خمسة مراكز أسطورية سومرية هي: جلجامش وأجا وأسطورة جلجامش وثور السماء، وأسطورة جلجامش وأنكيدو والعالم السفلي و جلجامش وغابة الأرز. وأنآنا. جلجامش وشجرة الخالوب.

وقدم الباحث رأياً خاصاً عن الأدب البابلي الذي تميز بنوع خاص من الأساطير المعنية بالبحث عن الحياة والخلود وتناول بالتحليل كلاً من جلجامش وأتانا بالإضافة الى أدابا.

وقال الباحث عن المراثي السومرية: كانت تدور حول الكوارث السياسية كدمار أكد وأور وهي مرهقة لدى قراءتها بسبب وتيرتها المملة درسنا الرثاء في كتابنا: التوراة السياسي:عمان٢٠٠٢

وتضاف إليها مراثي شعائرية تعود في غالبيتها الى عصر متأخر ومدونة بلهجة النساء أمسال وكانت تشكل نصوصاً للأغاني المعروفة باسم ارشما وتؤدى على عزف آلة موسيقية، تدعى بلنج، ووجدت مراث خاصة بالإله القصي ولا سيما في دموزي وحادثة اختفائه. ص٢٤٦

الباحث والعالم الألماني فون. زودن أنجز معجماً خاصاً باللغة الأكدية، استفاد منه العالم العراقي المعروف د. نائل حنون في إعداد معجمه الخاص باللغة السومرية. وأصدر أكثر من أحد عشر كتاباً خاصاً بالحضارات الشرقية وهو من العلماء المهتمين بالكتاب المقدس وعلاقته بالشرق القديم. وقد اختتم كتابه هذا قائلاً: يستطيع المرء أن ينظر الى الحضارات العراقية المبكرة وفق منطلقات وزوايا مختلفة ضمن إطار التاريخ الكوني العام، فهي تعرض. كلاً حسب طول فترة استمراريتها سلسلة كبيرة أو صغيرة من الخطوات تبدأ بحضارات ما قبل التاريخ . الى الحضارات التي أعقبتها وشهدت تطورات أكثر في جوانب عدة ولذلك يمكن أن ينظر إليها كمستويات حضارية متدرجة.

مهرجان مدين الشعري العالمي في كولومبيا

شعر بكل اللغات وجمهور غفير تحت المطر

صلاح حسن
كولومبيا

تكمن أهمية أي نشاط ثقافي بعدد متابعي هذا النشاط بغض النظر عن طبيعته الفنية أو الفكرية أو الاجتماعية، ولكن أن يكون هذا النشاط شعريا فأن النظرة له ستكون مختلفة طبقا للنظرية التي تقول بانحسار الشعر إزاء الفنون الإبداعية الأخرى. وعلى هذا الأساس لا يمكن مقارنة مهرجان الشعر الكولومبي العالمي في مدينة مدين بأي مهرجان شعري في العالم بأي شكل من الإشكال لسبب بسيط هو الجمهور الذي حضر فعاليات المهرجان الذي استمر لمدة عشرة أيام حافلة بالشعر، قلب بموجبها معادلة ما كنا نتداوله في العالم العربي من أنَّ الشعر ديوان العرب التي بدت لمن حضر المهرجان خطأ شائعا بامتياز. فحفل اختتام المهرجان الذي حضره ثلاثة آلاف شخص بدأ في الرابعة ظهرا وانتهى في العاشرة مساء تحت وابل شديد من المطر لم يمنع هذا الجمهور الغريب من متابعة ختام المهرجان حتى النهاية.

لم يكن الجمهور الكولومبي الحاشد الأمر الملتبس الوحيد في المهرجان، فقد كانت هناك أحوال كثيرة ملتبسة وغير قابلة للتفسير، اقلها الكولومبيون أنفسهم بلطفهم النادر من جهة وحربهم الأهلية المستمرة منذ خمسين عاما من جهة أخرى، الشعراء المشاركون في المهرجان، الطقس، والنساء الكولومبيات المذهلات بأنوثتهن.

عنف ولطف بين الحكومة والجمهور

الشاعر فرناندو ريندون مدير المهرجان قال إن العنف في الشارع الكولومبي مصدره الحكومة التي لا تفهم من الديمقراطية سوى فكرة الديمقراطية الغامضة، في المقابل لم نر في المدينة كلها صورة واحدة لرئيس الجمهورية وبقي الالتباس قائما. فكرة الثورة بمفهومها الماركسي مازالت تسيطر على أفكار الشباب الكولومبي الذي يتشبه في سلوكه ومظهره الخارجي بالثوري تشي غيفارا والرئيس الكوبي فيدل كاسترو، حيث علت أثناء المهرجان صيحات تندد بالامبريالية الأمريكية التي تبتز شعوب العالم ومنها شعوب أمريكا اللاتينية. إذن الشعر لم يكن الدافع الوحيد لحضور المهرجان، فقد كانت السياسة حاضرة بقوة برغم الشغف الذي أبداه الجمهور وهو يستمع إلى قصائد ذات هموم جمالية وفكرية بحتة. تناقضات حادة وكثيرة استطاع الشعر وحده بقدرته السحرية الضائقة على مواءمتها وجمعها في بوتقة واحدة هي الشراكة الإنسانية التي طغت في النهاية على كل شيء.

الملاحظة الجديرة بالاهتمام هي أن الجمهور معظمه من الشباب ومن الصبايا بالتحديد، بعذوبتهن النادرة وملابسهن القليلة للغاية مع انعدام أي شعور بالإثارة التي يمكن تلمسها في أماكن عديدة من العالم بما فيها العالم المتحضر في أوروبا وأمريكا الشمالية. ويبدو إن المناخ في هذه القارة يلعب دورا حاسما في ذلك.. أن درجات الحرارة لا تقل عن ثماني عشرة درجة طيلة أيام السنة، وهو طقس مثالي يسهم في تثبيت السلوك البشري المتقلب.

شعراء من كل بقاع الأرض

دعي إلى مهرجان مدين شعراء من القارات كلها بحيث قارب عددهم الثمانين شاعرا ينتمون إلى خمسين دولة ويتحدثون عشرات اللغات وملامحهم تفصح عن بلدانهم، عدا المضيفين الذين بدوا اقرب إلى العرب بشكل لافت والى اللبنانيين أو السوريين بالتحديد رغم وجود السود والخلاسيين بينهم.

تميز الشعراء الأفارقة عن اقرانهم بملابسهم التقليدية وقراءاتهم التي رافقتها آلات موسيقية غريبة فكانوا اقرب إلى المغنين الجوالين (التبرادور أو الطرب يدور) مع تكرار منتظم لبعض اللوازم الموسيقية. وبرغم إنهم قرأوا باللغتين الانكليزية والفرنسية إلا إن موضوعاتهم كانت متشابهة واغلبها يدور عن الماضي السحيق قبل مجيء الرجل الأبيض إلى القارة الإفريقية ومحقه للثقافة السوداء مع استثناءات قليلة كان صوت سنغور لشاعر الحزب الأفريقي الشهير طاغيا عليها بشكل واضح. الاستثناء الوحيد كان الشاعر الجنوب إفريقي المرشح إلى جائزة نوبل برايتنباخ الذي سنتحدث عنه بعد قليل.

أما الشعراء الناطقون باللغة الاسبانية رغم مرجعيتهم الواحدة فقد تعددت مواضيعهم الشعرية وبرزت أصوات مهمة منهم (الأرجنتين وكوستاريكا) دفعت الجمهور الغفير إلى مطالبتهم بقراءة المزيد من النصوص. كما تميز شاعران من الهنود الحمر قرءا قصائد قصيرة هي اقرب إلى التراث الروحي الأسطوري لماضي الهنود الحمر منها إلى مفهوم الشعر المعاصر. ولم يتوقف صفير الجمهور حتى عاد احدهما إلى المنصة وقرأ مزيدا من النصوص يرافقه تصفيق حار (يوهان فريدي) من كولومبيا.

شعراء أوروبا كانوا أكثر تأملا وأكثر الأصوات خفوتا بمواضيعهم الدفينة التي احتلت الطبيعة حيزا كبيرا منها. وبدا الحس الإنساني المكبوت واضحا في النصوص، حيث اتخذت من الذات منطلقا للحوار مع الأشياء التي بدأت تتراجع وتغيب عن حياة الإنسان الذي بدأ بدوره ينعزل ويتراجع في حياة تزداد عتمة. الشاعر الايطالي ميلو دو انجيليز قرأ نصوصا قصيرة وغامضة بعض الشيء طغى عليها الجانب الفلسفي ربما بسبب عمله كأستاذ للأدب الحديث. أما الشاعرة البلجيكية ميريام فان هيه التي قرأت نصوصا باللغة الهولندية فقد غاب في نصوصها الإنسان بشكل لافت واحتلت الحيوانات الأليفة لغتها وعالمها كله، بحيث لا تخلو قصيدة واحدة من قصائدها من ذكر حيوان ما حتى أصبحت الحيوانات ثيمة مركزية في عملها الشعري. أما الشاعر الهولندي البصير شيبا هايتخا فقد قرأ نصوصاً رؤيوية جاءت كمعادل موضوعي لفقدانه البصر، يختلط فيه الحسي بالمتخيل والواقع بالحلم مع تصور كابوسي للعالم.

الشعراء العرب وصورتهم النمطية عند الآخر

خمسة من الشعراء العرب شاركوا في الدورة السابعة عشرة لهذا المهرجان ساهم بعض منهم بإثارة الكثير من الجدل داخل أروقته وضخموا الصورة النمطية عن العرب عند الأخر منهم (الشاعر) ورجل الأعمال السعودي عبد الله باشراحيل الذي استأجر جناحا خاصا في الفندق الذي أقام فيه الشعراء ووزع أعطيات على الجميع. لكن تصريحاته الشعرية ومواقفه النقدية كانت الأكثر إثارة على الإطلاق. فالشاعر ادونيس مثلا لم يصبح شاعرا إلا بعد إن نال شهادة منه، ومحمود درويش ليس بشاعر ولا حتى محمد الماغوط. كان حضر المهرجان على نفقته الخاصة وتحدث بعض الحاضرين عن دعمه المادي للمهرجان دون إن يتأكد ذلك من احد. أما الشاعر اللبناني محمد العبد الله، أكثر الشعراء هدوءا فقد بدا ثملا طيلة أيام المهرجان دون أن يزعج أحدا وقرأ عددا قليلا من النصوص، لكنه كان يتوارى بعد إن يتم قراءته مباشرة فكان وكأنه غير موجود. الشاعر المصري احمد الشهاوي كان معروفا لدى المهرجان وهو ي